مشاهدة التلفزيون وبناء الواقع والمعاني الاجتماعية

أ/ بلغيثية سميرة

المركز الجامعي غليزان/ الجزائر

يعتبر التلفزيون وسيلة متميزة، تتداخل فيها الحقيقة والخيال، الواقع المعايش ماديا وواقعيا مع الواقع المعايش خياليا وتلفزيونيا، كما أدى تقلص المسافة بين العالمين إلى إثارة العديد من التساؤلات حول طبيعة العلاقة التي ينسجها الأفراد مع الخيال التلفزيوني، وانعكاس ذلك على الواقع المعايش، ولهذا سنحاول التعرف على مسار بناء الواقع لدى الأفراد، انطلاقا من طريقتهم في التعرض إلى محتويات البرامج التلفزيونية، بالإجابة على التساؤلات التالية:

مالمقصود بالمشاهدة التلفزيونية؟ وماالعلاقة بين مشاهدة التلفزيون وبناء الواقع والمعاني الاجتماعية؟

1. مفهوم المشاهدة التلفزيونية:

لقد عرفت عملية مشاهدة التلفزيون تطورا ملحوظا، ابتداءمن فترة ظهور التلفزيون حتى العصر الحالي، ولعل التزايد المستمرفيإقتناء أجهزة التلفزيون، يعتبر دليلا واضحا على إقبال الجمهور على هذه الوسيلة، وعلى مكانة التلفزيون بين وسائل الاتصال) الأخرى.

كما تعتبر مشاهدة التلفزيون ممارسة فردية أواجتماعية، حيث عرّفها نصر الدين العياضي "هي ممارسة فردية أو اجتماعية، رغم أنها تبدو كقرار فردي حميمي يتخذ داخل الوسط العائلي"، [1] وذلك أن الفرد في الكثير من الحالات لا يشاهد برنامج معين في التلفزيون بناء على رغبة منه، وإنما بناء على الجماعة التي ينتمي إليها، حتى يستطيع أن يشارك أصدقائه في الحديث عن ما يشاهدوه، ويتبادل معهم أطراف الحديث والتحاليل والإنطباعات، وحتى لا يكون منعزل عن الجماعة.

و يمكن تعريف المشاهدة التلفزيونية في إطار جمالية التلقي، بأنها" عملية تفاعلية بصرية بين المدركات، من خلال الصورة التلفزيونية، وبين المشاهد في سياق زمني خاضع للإنتقائية، ومحكوم بالتواقتية، ومستويات الأزمنة التلفزيونية الأخرى".[2]

فعملية مشاهدة التلفزيون إذا ترتكز أساسا على أعضاء وأجهزة الاستقبال الحسي، حيث تسجل اللقطات السريعة المعروضة على شاشة التلفزيون في المخ من خلال حاسة البصر، وعلى هذا المنوال يتم اكتساب المعارف والمعلومات من خلال التعرّض لوسائل الإعلام عامة، والتلفزيون بصفة خاصة.

أما المشاهد فهو الفرد الذي يتلقى المضامين التلفزيونية، ويمكن تقسيم تسميات المشاهد إلى ما يأتي:

<u>المشاهد الضمني:</u>

استخدم هذا المصطلح في بعض الدراسات النقدية التلفزيونية، أي دراسة Robert Alin "روبرت ألان" الذي اعتمد على مضمون ما قدّمه Izer "آيزر" في حديثه عن القارئ الضمني، [3] لتعريف

المشاهد الضمني، التخييلي الذي يعني أن منتج الرسالة التلفزيونية يستحضر المشاهد الذي يتوجه إليه في عمله، ويبدو واضحا في الأنواع التلفزيونية القائمة على الخيال.

المشاهد المشخص:

ترتبط تسمية هذا المشاهد بمخاطب أو ممثل تلفزيوني، يفترض أنّه يقدّم رسائل واضحة، بدلالات مفهومة إلى المتلقي أو المشاهد، ويرتبط هذا النوع من المشاهدين ببرامج الأخبار والإعلانات التلفزيونية،[4] وفي هذا السياق يرى Robert Alin "روبرت آلان": "أن التلفزيون كثيرا ما يهيّئ لنا مشاهدين مشخصين على الشاشة، يفعلون ما لا يستطيع المشاهدون الحقيقيون أن يفعلوه، يتفاعلون مع الشخصيات الأخرى، ويستجيبون بأسلوب مثالي إلى مناشدات المخاطب وطلباته، واستعجاله إياهم".[5]

المشاهد المنتظم:

ترتبط هذه التسمية بالمشاهدة المنتظمة، المبنية على تتبع حلقات أو مسلسلات تلفزيونية في أوقات محددة ومنتظمة، وتبدو المشاهدة هنا" مرتبطة بتواريخ وذكريات تتحد جميعا لتخلق مجموعة لا نهائية تقريبا، من الصلات المحتملة بين حادثة و أخرى في العقدة".[6]

وبناء عليه، نجد أن هناك عدة أنماط للمشاهدة، وهذا ما أكده Robert Alin "روبرت آلان" في دراسته، حيث تحدث عن مشاهدتنا للأوبرا الصابونية، بوصفنا" مشاهدي أوبرا الصابون، لا نملك إلا أن نكون داخل تدفق السرد في تلك الأوبرا..."، [7] بمعنى أننا نكون خلال عملية المشاهدة التلفزيونية تابعين للتتابع السردي التخيلي لبنية النص التلفزيونية.

يخلصRobert Alin "روبرت آلان إلى أن:"...تجربتنا مع التلفزيون تتضمن صيغتين مختلفتين جدا من انشغال المشاهد، الأولى صيغة هوليود السردية، والصيغة الأخرى من صيغ التلفزيون في شغل المشاهد، هي الصيغة البلاغية، وتتضمن برامج الأخبار، عروض المنوعات، البرامج التربوية، برامج الرياضة...، ويخاطب المشاهد هنا على نحو مباشر، حين تنظر الشخصيات مباشرة نحو الكاميرا، وتتحدث إلى المشاهد".[8]

2. العلاقة بين التلفزيون والمشاهد:

الإعتقاد الذي كان سائدا، يتمثل في كون المشاهد سلبي، إلا أن ظهر مفهوم التفاعل في البداية للدلالة عن شكل خاص من العلاقة بين السمعي البصري والمشاهد، ويهدف إلى تحويل المشاهد الساكن السلبي إلى عنصر فاعل ونشيط، بشكل مؤثر في البرمجة، كما أصبح المفهوم يدل على كل أنواع مشاركة المتلقي في الرسالة، سواء أحدثت رجع الصدى، أو لم تحدث.[9]

وللتفاعل أنواع تتمثل فيما يلي:

- التفاعل غير المتعدي:

أمام الفيلم الذي يشاهد في قاعة السينما لا يوجد تفاعل، إلا بالقدر الذي يسمح للمشاهد ببذل نشاط حسي، فكري، أوعاطفي، فيساهم في تأويل الرسالة، إن المشاهد في هذه الحالة لا يضاهه سوى نفسه مهما كانت نتيجة التأويل.

-التفاعل المتعدي البسيط أو الضعيف:

يستطيع المشاهد أن يبلغ هذه الدرجة، لما يجلس أمام شاشته الصغيرة، في اللحظة التي يختارفيها مشاهدة برنامجا ضمن بقية البرامج المقترحة، فمحتوى البرامج المرشحة للمشاهدة لا تتأثر بهذا الإختبار مهما كانت درجة تكراره وعفويته.

- التفاعل المتعدي القوي:

من المفروض أن يكون محتملا على الأقل يستطيع المشاهد أن يتدخل أثناء الحصص التلفزيونية عن طريق مختلف الوسائل المتاحة، كالهاتف، البريد الإلكتروني، والمشاهد يتدخل في سير البرامج ليس بغرض تغيير بنيتها الداخلية التي تظل كثيفة الترابط، بل لكسر إستمراريتها، ودمجها ببرامج أخرى.

3. مشاهدة التلفزيون وبناء الواقع الاجتماعي:

أ. مفهوم بناء الواقع الاجتماعي:

يعود أصل الإهتمام بالمعرفة الاجتماعية والحقيقة إلى اعتبار أن الحقيقة تبنى اجتماعيا ، ويعتبر الثنائي Berger § Luck men "برجر و لوك مان" أكثر الذين تعرضوا إلى موضوع بناء الحقيقة الاجتماعية بصفة مباشرة، فهو ينظر إلى المجتمع على أنه حقيقة موضوعية وحقيقة ذاتية، فيعتبر أن الجزء الموضوعي عندما نتحدث عن المجتمع كإنتاج إنساني، فالعالم يتطلب طرقا يمكن من خلالهاتفسيره وتبريره.

أما الجزء الخاص بالمجتمع كحقيقة ذاتية فإن Berger § Luck men "برجر و لوكمان" يعتبران أن الفرد لا يولد كعضو في المجتمع، وإنما يصبح كذلك عندما تتأتى إليه ذاتية الآخرين، وتحمل بالنسبة إليه دلالة معينة.

كما يضيفان أن الحقيقة الذاتية يمكن تحويلها أو تحولها في مسار إعادة التنشئة الاجتماعية، عندما توفر الجماعة البنية الجديدة لحقيقة جديدة، وهو ما يضفي على الحقيقة الطابع النسبي، ويجعل منها حقيقة مبنية اجتماعيا وليست حقيقة معطاة.

ومن جهة أخرى نجد "عزي عبد الرحمان"، قد حاول الإقتراب إلى الحقيقة، التي يميزها عن الواقع الذي يقول عنه" الواقع هو مالا يمكن التعبير عنه إلا من خلال معايشته، وهو في جوهره معنوي، رغم أنه يمكن أن يظهر بصفة جزئية في المجسّد". [10] وهو بذلك يميّز بين الواقع الذي نعايشه مباشرة، والحقيقة التي ينظر إليها كونها تعبير عن هذا الواقع ويكون هذا التعبير عن طريق اللغة التي تشكل الواسطة بين الإنسان ومحيطه. كما يرى بأنه لدينا واقعا ماديا يكون وجوده مستقلا عن الإنسان، وفي مقابل ذلك الحقيقة التي هي تعبير عن هذا الواقع، بواسطة اللغة.[11]

بناء على ماسبق فإن الحقيقة هي بناء ذهني متغيّر، متعدد ونسبي، وأنه لا توجد حقيقة واحدة، وإنما حقائق متعددة ترتبط بسيرورة معقدة، ينتقل فيها الفرد من إدراك الأشياء وتصورها إلى تشكيل الإتجاهات ووصولا إلى الفعل والسلوك الملزم للفرد إجتماعيا.

ب. <u>التلفزيون وبناء الواقع الإجتماعي:</u>

يشير الباحثون أن مساهمة التلفزيون في عملية بناء الواقع الاجتماعي، هو سيرورة معقدة وغير مباشرة، وتعمل متفاعلة مع عناصر شديدة التنوع ومع مؤسسات السياق.

ويولي الباحثون على مستوى الإتجاهات نحو التلفزيون، أهمية قصوى لدور الواقع والديناميكيات التي تميز لحظة المشاهدة، وهو ما يعطي هذه الأخيرة صفة التجربة بكل ما تحمله من سيرورات نفسية واجتماعية ،فهي " تعمل كمؤشرات لنوع النشاط الذي يواجهه المشاهد من خلال المضامين التلفزيونية، فهناك المشاهد الناقد الذي يقوّم الوقائع في صياغة التصورات الاجتماعية لظاهرة معينة، وهو يختلف عن المشاهد السلبي".[12]

على صعيد آخر فإن أهمية المصادر المباشرة للتجربة، والروابط المختلفة التي تبني مجمل العلاقات الاجتماعية، تكمن في تمييز المراحل المختلفة في سيرورة البناء الإجتماعي للحقيقة، كما أن التلفزيون يكاد أن يشكل عالما قائما بذاته وهو ما يعطيه سلطة على الواقع، يصعب في الكثير من الأحيان فصلها عن سلطة السياق الاجتماعي الذي يتواجد فيه الأفراد، وهذا ما أشار إليه"بودريارد" بقوله أن التلفزيون عالم جد حقيقي يتبدد فيه الفعل الاجتماعي في عدد لا متناهي من الصور، وتنصهر فيه الحقيقة والمعنى.

فنجده إذا يتحدث عن العالم التلفزيوني كعالم قائم بذاته له أسسه، وقواعده، ويشكل الزيف سمة أساسية في تركيبته، إذ يصبح كل شيئ فيه قابل للتبادل اليمين واليسار في السياسة، الجميل والقبيح في الموضة، النافع والضار في تبادل الأشياء، وخاصة الصادق والكاذب في الرسائل الإعلامية حول الواقع، ويستخلص أن كل المعايير الإنسانية الكبرى حول القيم، وكل القيم الحضارية المرتبطة بالأخلاق، والأحكام المدنية والتطبيقية، تندثر في منظومة الصور والإشارات، وتصبح انديسيبل".[13]

4. مشاهدة التلفزيون وبناء المعاني الإجتماعية:

تستمد دراسة بناء المعاني الاجتماعية من البحوث التي قام بها Berger § Luck men "برجرولوكمان" حول المؤسسات الإجتماعية، ويقترح هذا الثنائي أن المؤسسات الاجتماعية التي تم تجربتها كحقائق موضوعية، هي في حقيقة الأمر بناءات اجتماعية، وبمجرد أن يتم بناء هذه المؤسسات اجتماعيا، تتحلى بطبيعة موضوعية، على شكل وقائع في الحياة الاجتماعية.[14]

وفيالسياق نفسه فإن مجموعة من الباحثين أمثال Schutz "شوتز"، Garfinkel "غارفينكل"،Recors"ريكور"، اهتموا بدراسة المعلومة ليس كرسالة موضوعية، وإنما من خلال الاعتراف بأن المعلومات مدمجة في إطار التجذرات الاجتماعية التي تتلاقى فيها، بحيث يرى Schutz"شوتز" بأن

المعلومات تحمل بالنسبة للأفراد معاني مختلفة جذريا، وهذا بالنظر إلى سيرهم الذاتية، ومكانتهم الاجتماعية، في حين يضيف Garfinkel "غارفينكل" معطى آخر مرتبط بالتبادل في عملية التفاعل التفسيري لمجموعة من الأفراد، ولا ينتج فقط من معرفة فرد واحد فقط، وهو ينظر إلى التأويل كونه متجذر في الوضعيات التي انبثق منها، ويؤكد على أن المعاني المشتركة ضرورية بالنسبة للتفاعلات اليومية،لأن المعنى يمكن أن يكون أحادي الانتاج، خاصة في الوضعيات التي يكون فيها الفرد وحده، ففي الوضعيات التي لا يحدث فيها التفاعل مثل الكتاب/كتابة الخطاب يفرض القارئ معانيه الذاتية على النص. وبالتالي تفترض المعلومات في مثل هذه الوضعية تأويلا ذاتيا واجتماعيا، وعليه قبل أن تأخذ المعلومة أية قيمة في مسار اتخاذ القرار، يتم بناء المعنى في إطار السياق.

وبهذا فإن Garfinkel "غارفينكل" يؤكد على ضرورة التفاعل بين اثنين أو أكثر، حتى ينبثق المعنى من اشتراك عدد أكبر من الناس.

كما يرى Milven Déflore"ميلفينديفلير" أن العلاقة بين الخيال والواقع ليست علاقة جديدة، فقد وجد في تفسيرات أفلاطون حول العلاقة بين الخيال والواقع ما يشبه إلى حد كبير الحديث عن المعاني التي يشكلها التلفزيون في علاقتها بالواقع الاجتماعي.

وإذا كان أفلاطون يؤكد على العلاقة بين المعنى والحقيقة، فإن مبادئ المعرفة الحديثة حسب"ديفلير" تؤكد أن المعنى قد لا يرتبط بالضرورة بالحقيقة كواقع، وإنما الأفراد قد يبنون معاني ليست لها علاقة مع الواقع. "فالناس قادرون على الربط بانتظام تقريبا بين أية كلمة وأي معنى لتكوين مفهوم،سواء كان ذلك يمثل العالم الواقعي تمثيلا حقيقيا أو لا يمثله...والناس لديهم معانيداخلية...بغض النظر عما إذا كانت هذه الأشياء حقيقية في العالم...وما إذا كانت تتفق مع هذه المعاني".[15]

وعلى هذا فإن الدور الذي تلعبه وسائل الاتصال الجماهيري والتلفزيون خاصة في مضاعفة قدرتنا على بناء معاني ترتبط بالعالم الخيالي أكثر من ارتباطها بالعالم الحقيقي.[16]

5. التجربة التلفزيونية والتجربة الحقيقية:عالمين مختلفين

يرى الكثير من الباحثين أن العالم الحقيقي مستقل تماما عن العالم التلفزيوني، فبالنسبة إليهم لا يمكن للمشاهدة التلفزيونية أن تشكل بديلا عن تجربة الحياة اليومية الحقيقية، بحيث توصل "كوبي" إلى أن المشاهدة التلفزيونية لا يمكن اعتبارها تجربة، ولكنها تعوّض التجربة، فالذي يحدث أن المشاهد التلفزيوني يعوّض التجربة الحقيقية بالتجربة الخيالية التي يراها على شاشة التلفزيون.

كما يرى E.Gofmen"قوفمان" بأن الاتصال الدرامي لا يهدف إلى إقامة نسيج اتصالي مصطنع بالمقارنة مع حقيقة أصيلة لا تخضع إلى عملية العرض. فبالنسبة إليه مجرد تبادل أفعال/تفاعل في الاتصال يكشف لنا عن وجود حقيقة اجتماعية سالفة التكوين عن طريق معايير العرض والتصورات، وإن الحقيقة يتم دائما إعادة بناءها، وتجديدها في الفضاء التفاعلي الذي يتم التفاوض حوله.

ويوجد الجزء الأساسي من عملية بناء المعاني في ذواتنا، إلا أنه لا يمكن لهذا البناء أن يتم إلا بوجود رصيد ثقافي مشترك، يتمثل هذا الرصيد في الفضاء العمومي الذي يتم من خلاله كل الاتصالات، ونجد في الفضاء العمومي حقيقتان، ترتبط الأولى بحقيقة الأحداث والمكنونات المسلم بوجودها، وتمثل الأخرى كل البناءات التي تأخذ شكل الرموز، وتسمح بإعداد كل أنواع الرؤى حول العالم، وهي الرؤى التي تستند إلى المعتقدات والعادات أساسا، وتضاف إلى هاتين الحقيقتين، حقيقة ثالثة تتعايش مع السالفتين وهي الخصال العاطفية والأحاسيس التي نعبر عنها بصعوبة، وتعتبر أساس كل حافز.

كمايقوم المشاهد أثناء عملية المشاهدة ببناء روابط بين الصورة وتفكيره، يحدد من خلالها السياق الذي يدخل فيه هذه الصور، وفي الوقت نفسهيقوم السياق بتحديد الحقيقة التي تعكسها هذه الصور، وتكون نظرة المشاهد المحدد الرئيسي للسمات المشتركة بين الصورة والحقيقة وتتحول الصورة في بعض السياقات إلى أداة للبناء.[17]

فتبقى الصورة في حقيقة الأمر وما تعبر عنه بالنسبة إلينا، ماهو انعكاس لنظرتنا، فلا توجد أية صورة جميلة، بعيدا عن حكم المشاهد، فهذا الأخير هو الذي يصنع الحقيقة، كما أنه يصنع الصورة.

وفي الأخير يمكن القول، أنه مهما اختلفت وتنوعت الآراء والبحوث حول علاقة مشاهدة التلفزيون ببناء الواقع، نجد أن التلفزيون رغم تميزه بخصائص متنوعة، لا يستطيع نقل الواقع كماهو بل ينقل جزء من الواقع، وباختلاف تأويل الفرد لما يراه على شاشة التلفزيون، تختلف البناءات والتفسيرات له. كما تبقى الكلمات تربي العين، وكل من لم يتعلم القراءة والكتابة لا يتعلم الرؤية، فلقد أوضحت بحوث عديدة أن الناس يحتاجون لمن يعلمهم كيف يقرأون الصور، وأن لمختلف الثقافات مصطلحاتها التصورية الخاصة بها، وأن مختلف المجموعات والطبقات الاجتماعية ترتبط برموز تصورية مختلفة، وتقرأ بأشكال مختلفة وأن للوسائل البصرية مصطلحات خاصة بها يجب تعلمها حتى يمكن فهمها.

الهوامش:

(1) نصرالدين العياضي، **التلفزيون دراسات وتجارب**، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1998، ص87.

(2) سمير لعرج ، **جمالية التلقي(أطروحة ماجستير)**، قسم علوم الإعلام والإتصال (الاتصال)، جامعة الجزائر، 2005، ص107.

(3) روبرت آلان، **التلفزيون والنقد المبني على القارئ**، تر:حياة جاسم محمد، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم:تونس، 1991، ص 23.

(4) سمير لعرج ، **جمالية التلقي(أطروحة ماجستير)**، نفس المرجع، ص 108.

(5) روبرت آلان، **التلفزيون والنقد المبني على القارئ**، نفس المرجع، ص 28.

(6) المرجع نفسه، ص22.

(7) المرجع السابق، ص18.

(8) سمير لعرج، مرجع سبق ذكره، ص 109.

(9) نصر الدين العياضي، **تلفزيون دراسات وتجارب**، نفس المرجع، ص 109.

(10) عبد الرحمان عزي، **دراسات في نظرية الاتصال: نحو فكر اتصالي مميز** ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2003، ص 19.

(11) المرجع نفسه، ص 20.

[12] فريال مهنا، **علوم الإتصال والمجتمعات الرقمية**، دار الفكر المعاصر،2002، ص261.

[13] عزيز لعبان، **علاقة الإدمان على المشاهدة التلفزيونية وبناء الأفراد للحقائق الاجتماعية(أطروحة دكتوراة دولة)** ،قسم علوم الاعلام والاتصال، جامعة الجزائر،2008، ص93.

[14] M.Miranda&carolShailaS.sanders,the social construction of meaning : an alternative ,perspective on information sharing, Information system reasearch,vol.14.n°1.March 2003,p88.

[15]ديفليرميلفين وساندرا بول.روكيش، **نظريات وسائل الاعلام**، تر:كمال عبد الرؤوف، الدار الدولية للنشر والتوزيع،ا لقاهرة، 1993، ص333.

[16]المرجع نفسه، ص 334.

[17] عزيز لعبان،**علاقة الإدمان على المشاهدة التلفزيونية وبناء الأفراد للحقائق الاجتماعية**، نفس المرجع، ص104.

المراجع:

1. ميلفين ل ديفليروساندرابول.روكيش، **نظريات وسائل الإعلام**، تر:جمال عبد الرؤوف، الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1993.
2. العياضي نصرالدين، **التلفزيون دراسات وتجارب**، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1998.
3. عزي عبد الرحمن ،**دراسات في نظرية الاتصال: نحو فكر اتصالي مميز** ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، 2003.
4. مهنا فريال ،**علوم الاتصال والمجتمعات الرقمية**، دار الفكر المعاصر،2002.
5. عزيز لعبان، **علاقة الإدمان على المشاهدة التلفزيونية وبناء الأفراد للحقائق الاجتماعية(أطروحة دكتوراه دولة)** ، قسم علوم الإعلام والاتصال، كلية العلوم السياسية والاعلام، جامعة الجزائر،2008.
6. لعرج سمير ، **جمالية التلقي(أطروحة ماجستير)**، قسم علوم الاعلام والاتصال، كلية العلوم السياسية والإعلام، جامعة الجزائر، 2005.
[7] ShailaM.Miranda& carol sanders ,**the social construction of meaning :an alternative perspective on information sharing**,information system reasearch,vol .14 .n°1,March 2003 .